رسالة الأديب كما حققها الرسول

قد يتوهم بعض الناس أن فى وصف النبى محمد ﷺ بالأديب نزولاً عن رسالته الخالدة ، وهذا غير الواقع لأنه نبى معجزته البيان ، وقد نزل عليه أفصح كتاب فى العربية ، فتولى تبيينه وإيضاحه ، ودعا إلى ما يدعو إليه فى نصاعة وبراعة ، وأكثر ما كان ذلك بلسان الأديب ، وإذا كنا نعرف أن الأدب هو التعبير الجميل عن الخاطر الجميل ، فإن تعبير رسول الله البيانى كان فى أرفع درجات الجمال ، وإن خواطره من الكمال والجمال والقوة والإقناع بحيث لا تسمو إليها خواطر إنسان ، فمحمد بهذا الاعتبار أديب عظيم ، لا مراء .

ثم إن الأدب فى أرفع مجالاته يلتقى بالدين لا محالة ، إذ إن نبل الشعور وسمو الأخلاق ، وحب الإنسانية والخير والعدل مما يرفع رسالة الأديب المثالى ، وليس الدين فى لبابه إلا دعوة صريحة إلى الخلق العالى ، والإنسانية الكاملة والحق النزيه ، والعدل المنصف والجمال الصريح ، فالدين والأدب يلتقيان لا محالة إذا طمح الأدب إلى أسمى الرسالات فى الحياة.. وهكذا كان الأدب على لسان محمد بن عبد الله .

يقول الأستاذ توفيق الحكيم تحت عنوان: «السماء هى المنبع» :

«هنالك صلة فى اعتقادى بين رجل الفن ورجل الدين ، وذلك أن الدين والفن كلاهما يضىء من مشكاة واحدة ، هى ذلك القبس العلوى الذى يملأ قلب الإنسان بالراحة والصفاء والإيمان ، وإن مصدر الجمال فى الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذى يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفنى ، من أجل هذا ، كان لابد للفن أن يكون مثل الدين قائمًا على قواعد الأخلاق» [1] .

---

(١) « فن الأدب » ، ص ٧٦.

وسبيلنا الآن أن نوضح كيف كان رسول الإسلام أول من سما برسالة الأديب فى الأدب العربى الذى نزل بلغته أفصح كتاب ، ولن نرسل الحديث فى تحمس المسلم العاطفى الذى يهيم بنبيه هيامًا يشغله عن إيضاح الأدلة وسرد البراهين ، فإن الاندفاع العاطفى لا يغنى عن الحق شيئًا إذا فقد الدليل المقنع ، ودليلنا المقنع فى هذه القضية هو الموازنة بين الأدب الجاهلى فى شتى مناحيه ، وما أضافه نبى الرسلام إلى مفهوم الأدب من أغراض وأفكار كانت تعوزه أشد الإيعاز .

ماذا كان الأدب العربى قبل نبى الإسلام؟ إنه كان شعرًا ونثرًا ضاع أكثرهما وبقى أقلهما ، ولكن ما بقى منهما يعطى صورة عن الغائب المفقود؟ فأى شىء كان شعر الجاهلين الذائع ، وأى شىء كان نثرهم الشهير؟ كان الشعر الجاهلى صدى عامًّا لإحساس القبيلة فيما يتعلق بالفخر والمديح والهجاء ، فالشاعر العبسى يترنم بقوة قومه ومفاخر قبيلته ، والشاعر الأسدى يعدد غزوات آبائه ، وتراث أجداده ، فإذا انتقل الحديث إلى الغزل والخمر واللهو ، رأيت مشاعر عادية تمثل الغرائز المتواثبة ، وقل أن تلمس تحليقًا رفيعًا يرتفع عن دنيا الدم واللحم إلى آفاق الروح ، وإذا كانت المعلقات من أظهر أبيات الشعر الجاهلى ، فإنك تقرؤها جميعا فتلمس روحًا تكاد تكون واحدة لدى الشعراء ، فكلهم أبناء واقعهم المحدود ، يتحدثون عن المرأة والأطلال والنوق والرياح والبادية ، ثم يعرجون إلى ممدوح يخصونه ببعض الثناء.. ولكن أين هو الشاعر القائد الذى حمل رسالة عالية فى شعره تبشر بالخير والنور من هؤلاء .

قد يقول قائل: إنه (زهير بن أبى سلمى) فى دعوته للسلام ، وقائل ثان: إنه (عدى بن زيد) فى دعوته إلى التساؤل عن المصير؟ وقائل ثالث: إنه (أمية بن أبى الصلت) فى التفاته إلى الحساب والجزاء وسير المتقدمين ، ولكن الواقع الملموس من شعر هؤلاء لا يعطيهم جميعا ما يود لهم القائلون.

إن (زهيرًا) دعا إلى السلام وذم الحرب عرضًا فى معلقة طويلة جعلت مديحًا لكريمين تحملا الديات ، وأنهيا الحرب وأقرا السلم لمدة وجيزة ، وقد طمع الشاعر فى مال أحدهما وكان موكلاً بمديحه ، فاضطر إلى التغنى بمفاخره .. وإذا كان من أبهرها إقراره السلام فهو لا محالة مسوق إلى تحبيذ السلام الذى صنعه صاحبه ، وتبغيض الحرب التى قضت عليها مكارمه فى عدة أبيات معدودات .

أفكان زهير إذاً ، صاحب رسالة كبيرة فى عالم الأدب وحاله تلك؟ أم أن صاحب الرسالة بطل مكافح يرسل قصائده المتوالية فى هدفه الأسمى ، لا أن يسير فى ظل كريم يترسم خطاه لينقلها إلى الحروف والكلمات؟.

أما (عدى بن زيد) فقد ظل حليف غزل وخمر ولهو ، حتى وقع فى سجن النعمان ، ورأى الشر فى عين المليك الغادر ، ثم وازن بين أمسه الزاهر فى إيوان كسرى ، وغده المرتقب فى ظلمات القبر بعد الاغتيال فأرهبه المصير ، جعل يعتذر إلى النعمان بقصائد يبكين الجماد حتى إذا استيأس وترقب الهلاك ، دعا إلى الزهد ، وتحدث عن قصص بعض السالفين فى نحو قوله :

وتذكر رب الخورنق إذ ... فكر يومًا وللهدى تفكير
غره ملكه وكثرة ما يملك ... والبحر معرضًا والسدير
فارعوى غيه وقال وما غبطة ... حى إلى المرء يضير
ثم صاروا كأنهم ورق جف ... فألوت به الصبا والدبور

فماذا فى أمثال ذلك من قيام برسالة مهمة فى دنيا الآداب - ولنترك هذين إلى (أمية بن أبى الصلت) ، فمن المعروف الذائع عن تاريخه أنه قام برحلات كثيرة فى ديار اليمن والشام والعراق ، وأنه اتصل بالأحبار وأخذ عنهم ما ينفرهم من عبادة الأوثان. فمصادره العلمية تنحصر فيما وعاه من الرحلات ، وما سمعه من الرهبان. وقد يكون لبعض الحنفاء من العرب (كزيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل) وغيرهما أثر فى جذبه إلى التأله؛ لأن تأثيرهم وهم أبناء موطنه القريب أدعى إلى

النفاذ والقوة من تأثير الغرباء ، ولكن هذا المتحدث الذى حرم الخمر على نفسه ، ونبذ عبادة الأصنام قد هدم كيانه الدينى هدمًا أتى عليه من القواعد حينما انضم إلى مشركى مكة من أعداء محمد ، وتطوع برثاء قتلى بدر كأبطال استشهدوا فى قضية توجب الرثاء ، ولو سلك سبيلاً حياديًا بين محمد ومناوئيه لقلنا إن الرجل قد خضع إلى نوازع الضعف الإنسانى حين أبطأ عن تأييد محمد ، وهو يعلم ما جاء به من الحق ، ولكنه اشتط وبالغ حتى صار الضعف الإنسانى لديه جنونًا يدفعه إلى البكاء على شهداء الأصنام ، ونحن هنا فى معرض السؤال عن رسالته الأدبية التى يمكن أن يكون بها صاحب دعوة تحرير. فإذا كانت هذه الرسالة فيما قاله من الأساطير والأنباء عن سفينة نوح. وتطويق الحمام ، وقصة الغراب ، والديك ، وخراب سدوم، وقزعة الهدهد ، فكل ذلك مقتبس من التوراة المحرفة. ومعلومات شائعة لدى الأخبار ، وقد دعا الغرض الفاضح المستشرق الفرنسى (كليمان هبوار) إلى القول بأن شعر أمية من مصادر القرآن ، وأن الرسول ألفه متأثراً بثقافات أمية الدينية ولكن الفرق الواضح بين قصص التوراة وقصص القرآن يأتى على هذا الزعم من القواعد ، فهل زنى لوط؟ هل فسق داود؟ هل افترى إبراهيم كل ذلك فى التوراة ، وليس فى القرآن مما يؤكد اختلاف المصدرين لا محالة. وماذا نقول فى قصة عاد وهود التى لم ترد فى غير القرآن وقد صدقتها المكتشفات الأثرية الحديثة فى منطقة الأحقاف.. إن مجرد ذكر أساطير التوراة فى شعر أمية لا يجعله صاحب رسالة أدبية إلى السمو ، وإذا لم يستطع أن يرتفع بنفسه إذ هبط إلى البكاء على شهداء الأصنام ، أفيكون ذا رسالة أدبية كبرى تؤثر فى الناس بالبيان؟

فإذا تركت الشعر إلى النثر ، فأنت واجد لا محالة عشرات النصوص المحفوظة عن المفاخرة والمنافرة ، والموازنة بين أب وأب ، وجدٍّ وجد ، وحرب وحرب مع النظرة الضيقة إلى قيم الرجال إذ ذاك من اعتزاز بالعصبية ، وافتخار بالسلب والنهب وقطع الطريق. إن شيخ القبيلة ليصبح سيدًا مطاعًا ، لأنه أغار على قبيلة أخرى غاب رجالها فاستاق إبلها وأسر نساءها ، وأصبح ذا مال ، ثم يجلس فى ناديه

ليخطب ، ولتكال له الأمداح نثرًا وشعرًا ، أما سجع الكهان وخطب الزواج فما أظن المشتهر منها يصلح لأن يكون أدبًا تترنم به الأفواه .

اقرأ «الشعر الجاهلى» فى دقة ، واقرأ ما بقى من «النثر الجاهلى» فى دقة أيضًا ، ثم قل لى أى صاحب رسالة أدبية عالية نهض قبل محمد من دنيا البيان العربى ، فإذا أعوزك أن تجد أديبًا ذا رسالة قوية قبل محمد فأنت معى على الطريق .

تحدث النبى بالقرآن ، فلفت الناس إلى أمور جديدة لا عهد لهم بها ، لفت الناس فى بيان القرآن المعجز عن مكارم الأخلاق والحرية والإخاء والمساواة ، ودعا العقول إلى التفكير فى العوالم الكونية من ليل ونهار ، وبحر وشجر ، وسماء وأرض ثم وجهها إلى أطواء النفس وما يمور بها من مشاعر وأحاسيس. حتى جعل الفكر العربى شيئًا ذا قيمة ، بل إنه أوجده إيجادًا بعد أن كان تفاصحًا خلابًا بالألفاظ لا معانى زاهية فى أبهى البرود.. وإذا كان القرآن من عند الله وليس من عند محمد.. فهل تقوم المعجزة الخارقة دون نبى شارع يسر الله الذكر على لسانه فملأ صدره بالينابيع ، فإذا هتف برسالة القرآن وجد منها السلسل الفياض .

كان القرآن صيحة أولى فى الفكر العربى جاءت على لسان محمد ، وتبعتها صيحة ثانية من هذا الذى نزل القرآن على قلبه توضح ما غمض وتفصل ما أجمل ، وتحلل ما أوجز ، ومن ذلك كله كان نبى الإسلام صاحب رسالة كبرى فى دنيا البيان.

ثم ماذا؟ أكان محمد أديب ملإ محدود فى أرض الحجاز! أم كان أديب الناس أجمعين!..

إن أحاديثه انتقلت إلى ممالك نائية وأمم بعيدة ، فأحدثت تأثيرها الكبير ، وإن الذين يترجمونها اليوم من المستشرقين وغيرهم يقفون عندها متأملين ، ثم يفسحون المجال لنقاش ما تتضمنه من المبادئ والأغراض؟ أيكون محمد بعد ذلك أديب ملإ محدود فى أرض الحجاز..؟

لقد كانت أول كلمة نزلت عليه (اقرأ) لتلفته بادئ ذى بدء إلى المعرفة والعلم ، ومتى كملت المعرفة لإنسان ، فسيسير مع محمد فى كل اتجاه.. لأن الذى يدرك حقائق العلم سيتطهر لا محالة من أدران الجاهلية ، فلا يسجد لوثن ولايئد بنتًا ، ولا يشرب خمرًا ولا يسعى فى الأرض بالفساد... ومن هنا دعا محمد إلى التفكير ، وكان فيما أنزل عبرة لأولى الألباب ، وآيات لقوم يعقلون أو يعلمون أو يتفكرون على نحو ما تحدث به القرآن .

ومن هنا حرص محمد على صحة الكلمة أدق الصحة وحريتها تمام الحرية ، وصوابها أكمل الصواب فكان فيما قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت. إن الرجل ليلقى بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها سبعين خريفا فى جهنم ، وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم» وسئل ما الجمال فقال: فى اللسان .

كما كانت بلاغة الصدق لديه هى العليا ، يبغض الثرثارين ، والمتشدقين ، والمتفيهقين ، لأن الحق يضيع بين الثرثرة والتصايح.. ولكن جمال البيان فى الهدوء والدقة والإقناع .

جاء نبى البيان بهذه المثل الأدبية لقوم بلغ القريض عندهم مبلغه من القوة والإتقان فماذا كان موقف الشعر أمام هذا الاتجاه .

إن مؤرخى الأدب يعترفون بأن الشعر قد ضعف فى صدر الإسلام ، ويعلل الأصمعى ذلك بأن الشعر نكد لا يقوى إلا فى الشر ، وقد جاء الإسلام محرماً رذائل الجاهلية ، مما تمدح به الشعر من وصف للخمر وهجو للمحصنات ، ودعوة إلى الشقاق وغزل فاجر فاسق ، فضاق المجال فجأة أمام الشعراء .

ولكن تعليل الأصمعى لم يأت بالقول الفصل ، فإن ضعف الشعر فى صدر الإسلام كان سكتة مذهلة أمام أغراض جديدة جاء بها نبى البيان ، فما قبل أن ترتد إلى الوراء ثانية ، ولا استطاع أن يعيش التجربة الجديدة فى وهج من النور ، ولو لم

يسكت الشعر هذه السكتة لانطلق يتحدث عن مكارم الأخلاق وحب الإخاء والمساواة ، ويبشر بعالم جديد بزغ عن نور القرآن .

سيقولون إن حسّانًا وأضرابه قد دافعوا عن حزب الله.. ولكن الموقف كان أكبر من حسان.. كان يتطلب شاعراً كبيراً يصور محاسن الإسلام تصويراً يأخذ بالألباب ، ومازال هذا الشاعر فى ضمير الغيب لم تسعد به العربية ، وإن سعدت به الأرديّة والفارسية على لسان إقبال .

كان التقليد الكلاسيكى غلًّا ثقيلاً أمام شعراء الإسلام فلم يتمكنوا من الانطلاق من آصاره وإنها لثقال ثقال ، وإلا فماذا نقول فى أكبر شعراء الدعوة الإسلامية وقد تعرض لتأييد الإسلام فى بعض قصائده الجهيزة فأوقعه تقليده المنهجى فى مجافاة ذوقية ثقيلة ، إذ إنه بعد أن تغزل وبكى الطلل قال عن راحه المعتقة..

إذا ما الأ شربات ذكرن يومًا فهن لطيب الراح الفداء

وهو يعلم أن رسول الله لم يكن ممن يشربون الخمر ، وإذا كان تحريمها قد جاء بعد إنشاء هذه القصيدة ، فإن مجرد امتناع نبى الإسلام عنها ما كان يجيز لشاعر أن يمدحها فى قصيد يتوجه بها إلى من حرم على نفسه الصهباء .

على أن موضع العجب فى هذا النبى البليغ: أن ثقافته العظيمة كانت من ذات نفسه لم يتأثر بأدب أجنبى ، ولم يقرأ تاريخًا لأمم غابرة ، ولم يخبر سياسات الأمم القريبة والبعيدة ، ثم جاءت أحاديثه بعد ذلك أحاديث قارئ التاريخ ، وعالم السياسة ، ودارس الآداب .

وإذا كان تحرير العقول أول ملهم الأديب الرائد ، فبأى سلاح حرر محمد ﷺ العقل العربى من الخرافات؟

بأى سلاح أزال عن العقل العربى أوهام الطيرة ، والتشاؤم ، والاقتسام بالأزلام ، والتداوى بالتمائم ، وتأليه الجن ، والكواكب ، والأصنام ، ثم وجهه إلى الطريق المنهجى فى الاهتداء بالنظم ، وربط المسببات بأسبابها الصحاح .

اقرأوا ما قال نبى الإسلام فى ذلك فإن الجامع الصحيح وغيره مما يشرق بنوره قد سجل لمحمد ﷺ أبدع الآثار.. فكان أكبر أسلحته سلاح البيان .

إن هذا النور البيانى الذى انبثق من لسان محمد قد زاد من تأثيره ، إنه انبثق من لسان نبى متواضع غير مغرور ، ونحن نرى نفرًا من الأدباء يشمخون بآثاره ويبلغ بهم التطاول حدًّا يدفعهم إلى المباهاة. وهم بعد أدباء زمنيون يؤثرون فى جيل واحد، وإقليميون يؤثرون فى قطر واحد ، ثم تأتى الأيام بما يزلزل إنتاجهم من القواعد ، ولكن نبى البيان يأتى بأدب خالد إلى زمن غير محدود ، ثم يضرب المثل فى تواضعه فيتحدث فى هدوء ، ويجيب وكأنه يسأل ويفيد وكأنه يستفيد .

ما ذلك إلا لأنه عند نفسه ، وبالقياس إلى رسالته أعظم من أن ينحدر إلى ادعاء، تكلم رجل عنده فأطال فى غير طائل ، فسأله رسول الله فى هدوء: كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاى وأسنانى فقال الرسول: إن الله يكره الانبعاق فى الكلام ، فنضر الله وجه رجل أوجز فى كلامه واقتصر على حاجته وبذلك هداه الصواب .

وقد ترك محمد مدرسة بيانية من صحابته وأتباعه ، فجاء أدب أبى بكر وعمر وعلى مستلهمًا من نبعه ، وتوالى دعاة الخير ، والمعروف من رجال الإسلام يملئون مسامع الكتب بأدب الإرشاد والتوجيه.. وذلك ما يجدر أن نسميه صادقين بأدب الإسلام .

إن التسمية الإصطلاحية فى تاريخ الأدب قد وضعت بعض الأشياء فى غير موضعها الصحيح ، فمؤرخو الأدب العربى مثلا حين يعنون الأدب الإسلامى إنما يضعونه فى كفة تجاه الأدب الجاهلى ، وهم بناء على ذلك يعدون أدب الهجاء ،

والمناقضات ، وخمريات الأخطل ، وأبى نواس ، وكل ما دار هذا المدار يدخل فى نطاق أدب الإسلام ، وإذا كنا نعرف أنه لا مشاحة فى الاصطلاح ، فإننا نرى أيضًا أنه لا مانع من تعديل بعض المصطلحات الواهنة تعديلاً يرتفع بها إلى القوة الصحيحة فيكون المراد بالأدب الإسلامى حينئذ كل مانحا نحو الإسلام مما جاء به محمد ، ودعا إليه صحابته المخلصون ، أما غير ذلك فيسمى باسم عصره ، فيقال: أدب أموى وأدب عباسى ، وأدب مخضرم فأنت مع اصطلاح القوم تجعل خمريات الأخطل ، ونقائض الفرزدق ، وجرير أدبًا إسلاميًا ، وفى الاصطلاح الذى أدعو إليه تنأى بها عن ذلك ، ومهما ارتفعت أصوات الاعتراض على هذا القول ، فأنا أدعو إلى أن نتحدث من جديد عن تاريخ جزئى لأدب الإسلام ، يبتدئ بمحمد ثم يتسلسل بمن تبعه من ذوى البيان الهادى والمنطق الموجه السديد .

إننا نسمع بين الآونة والأخرى إنكارًا صارمًا على من ينادون بتجديد وجهة الأديب؛ إذ يرى المنكرون أن الأدب غاية لا وسيلة ، فليس لك أن تهدف بأدبك إلى رسالة خلقية أو اجتماعية ، وإنما الفن للفن كما يقولون ، بينما ترتفع أصوات أخرى تعلن: أن الأدب للمجتمع ، فلا ينبغى أن يكون الأديب الكبير بمعزل عن قومه يقبع فى برجه العاجى بعيدًا عن مشكلاتهم وأحلامهم لينظم قصيدة ذاتية أو يكتب قصة شخصية.. وكثيرًا ما تطاحن الرأيان على صفحات المجلات وتشيع إلى كل رأى فريق.. فما موقفنا من ذلك ونحن نتحدث عن رسالة أكبر أديب مصلح وجه بيانه وجهة الهداية والإصلاح .

لقد دافع (تيودور جويتيه) [1] عن قضية الفن للفن دفاعًا حارًّا ، فأعلن أن الآداب القديمة كانت جميلة ، لأنها فن طليق حر لا يعرف المنفعة وإنما يعرف الشعور وذاتيته ، والأدب الملفف فى أثواب الفضيلة أدب يلتوى الفهم فيه

(١) « تيارات أدبية » للدكتور إبراهيم سلامة ، ص ٣٤١ .

فلا ندرى إذا كنا بصدد أدب أم إذا كنا بصدد قواعد وسلوك ومسائل تتصل بالأخلاق.

قال (جويتيه) ذلك ونسى شيئًا مهمًّا ، نسى أن الأدب لا يهز الشعور الإنسانى الحى إلا إذا اتجه إلى تصوير الفضائل والمثل الرفيعة اتجاهًا يرضى الضمير المستقر فى نفس كل إنسان وإن نام أحيانًا ، أما إذا اتجه إلى المنحدرات الساقطة فقد يروق ببراعة تصويره ، ولكنه لا يستجيش الإعجاب الدائم من نفس ذات وجدان رفيع ، فقد يتعرض قصاص إلى تصوير شخصية هابطة ولا معابة عليه فى اختياره إذ إن تأثير التصوير فى نفس القارئ هو أساس الحكم ، فإذا ترك بها اهتزازًا عنيفًا لانهيار المثل ، فإن التصوير فى هذه الشخصية الهابطة قد أفاد الفن العالى من ناحية هذا التأثير ، أما إذا صورها فى براعة دون أن يترك صدى المأساة فى نفس القارئ فهو شيطان يتستر باسم الأديب ، ولا يمكن من وراء ذلك أن يعجب به قارئ يستشرف الآفاق الرفيعة لأن الفضيلة نهب مشاع بين الناس ، سواء من يعملون بها ومن لا يعملون - فالذين يعادونها يحسون فى أعماقهم حنيناً لها ورغم انفصالهم الظاهر عنها ، ومن هنا كان إعجابهم بالأدب الهابط لا يتعدى أوقاتًا محدودة يغفو فيها الرقيب الداخلى لحظات ثم يصحو ليعصف بكل منحدر هابط .. وإذًا ، فليس لدينا مشكلة غامضة تتعلق بغاية الأدب ووسيلته ، حتى نكثر من اللجاج فى كل مناسبة ، إذ إن التأثير النهائى - ويتوقف عليه تقدير الأديب - رهن بارتباط الكاتب بالمثل والأخلاق شاء أم أبى - ولعل الأستاذ «توفيق الحكيم» قد أحسن التعبير عن ذلك كله حين قال[1] :

« إنى لأشد الناس تمسكاً بحرية الفن ، وإدراكاً لقدسية هذه الحرية ، ولا أتصور فنًّا لا يصور الرذيلة كما يصور الفضيلة ، ولا يبرز القبح كما يبرز الحسن،

(١) « فن الأدب » ، ص ٧٧ .

وإن الدين يبرز لنا فضل المؤمنين وإحسان المحسنين ، ولكن المقصود ليس حرية التصوير فهى مكفولة فى الفن ملحوظة فى الدين ، إنما المقصود هو ذلك الإحساس الأخير الذى ينقله الفن والدين إلى النفوس ، ثم يقول الكاتب بعد ذلك مستطردًا بقول (جوبو): إن الروح الأخلاقى عند الفنان كعبقريته يجب أن ينبعا معا وفى وقت واحد من أعماق طبيعته ، وإن الفن غير الأخلاقى هو على كل حال أحط مرئية حتى من وجهة النظر الفنية الخالصة ، ذلك أن الفن العالى ليس هو الذى يثير فى النفس أحر المشاعر وأعنفها فحسب ، ولكنه ذلك الذى يثير فيها أكرم المشاعر وأرحمها ، إن خطر الفن يرجع إلى تلك القدرة العجيبة تلك التى يستطيع بها أن يستدر عطفك على مخلوقاته ويستلب إعجابك بصورة ، وإن العطف والإعجاب يعديان كالمرض، فإذا أبدع الفن فى تصوير نوع من الشذوذ أو الانحطاط وحملك بهذا الإعجاب على أن تعطف على الانحلال ، فإن مجتمعًا بأسره يمكن أن تسرى فيه العدوى عن طريق هذا الفن» .

وإذا كان الروح الأخلاقى مثار الإعجاب والتأثير ، فإن الأديب المصلح قد دخل باب الأدب من أوسع أبوابه ، وقد أصبح بيانه صاحب رسالة مثلى لا يمكن بأن يلحق به أديب ويكتب دون أهداف. وأحط منه ذلك الذى يكتب لأهداف هابطة تورث الانحلال والتهور فى مجتمع تسرى فيه العدوى الوبيئة من كتاب غير أمناء ، ومن هنا كانت الضرورة ملزمة إلى إيجاد مختارات من الأدب الإسلامى كما نعنيه لتظل مثالاً تشرئب إليه الأعناق فى تطلع ، ولا ريب أن أفضل هذه المختارات يفد إلينا من كتاب الله ومن حديث محمد ، ثم ممن استلهموا الحديث والقرآن .

لقد اقتعد محمد ذروة الفكر العربى حين تحدث لأول مرة فى العربية عن المصير الإنسانى المحتوم وعن مشكلات القدر والقضاء والكائنات ، فأوجد بذورًا صحيحة لفلسفة إسلامية رفيعة أتى بها نبى الإسلام ، ولكننا واحسرتاه إذا تحدثنا عن الفلسفة الإسلامية لم نتحدث عن آراء محمد فى التشريع والقانون والاجتماع ،

وعن رأيه فى ذات الله وصفاته ، والبعث والجزاء والعقاب ولكننا نتحدث عن ابن سينا ، والفارابى ، وابن رشد وكلهم يدور فى فلك الفلسفة الإغريقية ، فصرنا بذلك نرى الكتَّاب من شرق وغرب يجزمون بأن الفلسفة الإسلامية لدينا نقول مشروحة من كتب الإغريق ، فنحن فى الفلسفة ذيول لا رءوس ، ولو أمعنا النظر فى هذه القضية لجعلنا نصوص القرآن وأحاديث محمد وتابعيه نواة لفلسفة عربية إسلامية ، تستند أساسًا إلى أفذاذ أئمة حفظ لهم الإسلام كرامة العقل ، فكان لهم نظرهم الخالص دون اختذاء ، وذلك بعض ما أفاد الفكر العربى من محمد ، وعجيب ألا يلتفت إليه الناس .

لقد اكتملت فى نبى البيان رسالة الأديب المفكر المتأمل ، وإذا كانت الأعمال بنتائجها الحاسمة فإننا نترك الأستاذ «درينى خشبة» أن يحدثنا عن القيمة العليا لرسالة محمد الأديب العظيم حين يعقد مقارنة بين رسول الله ، وبين كبار الأدباء فى أوروبا المتحضرة ، فيرى كفة محمد ترجح ، ولن نستطيع أن نقل بحثه العظيم على أهميته فهو ضاف شاف بمجلة الرسالة العدد (٢٩٧) ولكننا نجتزئ بفقرات منه بعد أن وازن بين (ديموستين ، وشيشرون ، ودانتى ، وملتن ، وبيكون) ، وبين رسول الله كأدباء ، ثم قال متجها إلى سواهم من الأفذاذ :

«هؤلاء الأدباء العظام فى عصر لويس الرابع عشر (بيير كورنيل ، وديكارت ، وموليير ، وراسين ، ولافونتين). إننا نقولها كلمة حق لا تصدر عن حماسة فحسب ، بل عن تروية ويقين ، إن المثل الرائعة التى زاد بها هؤلاء فى تاريخ الفكر الإنسانى والثقافة الإنسانية هى قليل من كثير مما ضاعف به النبى هذا التراث ، ونحن نقول المثل لأن النبى لم يكن ضحاكًا كموليير ، ولا فيلسوفًا كديكارت ، ولا مؤلف درامات كراسين ، بيد أنه مع ذلك أنشأ للإنسانية مثلاً أسمى مما أنشأ هؤلاء ، وأنشأها كلها عن طريق الأدب» .

والأدباء الذين مهدوا للثورة الفرنسية: فولتير ، وديدور ، وبورمارشيه ، وروسو ، هل أنشئوا ثورة كهذه الثورة التى أنشأها محمد بن عبد الله وقام بها وحده، وأين هى الثورة الفرنسية التى انتهكت فيها الحريات ، باسم الحرية ، وخضعت فيها الكرامات والشرائع لجنون الشعب وعربدة النساء ولوثة الأوشاب ، من تلك الثورة العظيمة فى سبيل الحق وخير الإنسانية وانتشال العقل من براثن الأغوال الحجرية التى كان يعبدها الناس ، أى الثورتين كانت أعود بالخير على الناس وعلى الأفهام؟

لقد كتب «روسو» إنجيل الثورة ، فهل رسم فيه ما رسم القرآن للناس أجمعين فى كل العصور ، وهل كان إنجيل الثورة كهذا الوحى الذى يسره الله بلسان محمد .

ثم هؤلاء منشئو الأدب الألمانى (جوتة) صاحب فاوست ، و(شيللر) صاحب وليم تل ، و(ولسنج) مؤلف لاوكوف ، وهم الذين أعدوا الذهن الألمانى إعداده الذى غير عليه قرن ونصف قرن ، الإعداد الذى لا يعرف شيئًا هو المثل الأعلى غير القوة والغلب ، هل جعلوا ألمانيا تقهر العالم فى أقل من عشر سنين كما جعل محمد أمته تصنع ذلك ، هل كانت ألمانيا تنشر الأمن والطمأنينة والعلم والنور ودين الحق بالسلام ، كما نشر العرب ذلك جميعًا فى ربوع العالم أم أنها تستعبد الناس وتذلهم وتقول لهم: أنتم ساميون وحاميون وآريون ، أما نحن فآريون نورديون ، فى حين يقول محمد للناس : لا فضل لعجمى على عربى إلا بالتقوى .

أم أدباء روسيا (لرمنتوف ، وجوجول ، وتولستوى ، ودستوفسكى ، وترجينيف ، وبوشكين ، وجوركى) ، ماذا أسلف هؤلاء جميعًا ، لقد مهدوا بأدبهم الباكى البائس الغارق فى الدموع لشيوعية خربة مستبدة تستبد بالناس وتسومهم الخسف ، وتهدم مساجدهم وكنائسهم وبيعهم ، وتبيح نساءهم باسم الدولة فكأنهم تخلصوا من (راسبوتين) ، ليقعوا فى براثن (ستالين) .

ثم قال الأستاذ درينى خشبة رحمه الله موضحًا فصل الخطاب :

«نحن لا نحصى أدباء العالم هنا لنوازن بين ما انتهى إليه أدبهم وما انتهى إليه أدب القرآن الكريم ، ونحن لا نغض من الآداب الرائعة التى لها قيمتها ، ولها أثرها لنرفع أدب نبينا بغير الحق ، بل نحن نوازن بين مثل ونقارن بين خير كثير أصاب الإنسانية على يد رجل واحد ، وخير كثير أصابها على أيدى كثيرين ، وشتان بين الأدبين» .

ولعلّ الذين يشكون بعد ذلك فى أن محمدًا كان أديبًا عظيمًا لا يجوز أن يقاس به سواه ، يرون الضوء فيبصرون .

* * *